

جوزف ارنست رينان

١٨٢٣ - ١٨٩٢

كان «الآنسة رينان» ، كما لقبه رفقاء الصبا ، كثير الحياء ، ميالا الى الانزواء ، ميالا الى الدرس . وكان رقيق الحال والجسم مسالما ، وكثير الايمان ايضا . ظل حتى آخر ايامه كايما لجراح لسانه ، فلم يذكر عنه انه سب مناظرا او انه تراف الى عظيم في عهدي الامبراطورية والجمهورية طالبا للمناصب . وحتى فرنسا التي كان يعيدها لم يسرف في مدحها كما لم يتطرق في انتقاداتها ، بل كان يزن دائما المآخذ ولا يلقى الكلام جذافا على عواهنه . لذلك حمل الفرنسيون وغيرهم انتقاداته على خير محمل ووارود التراب باحتفال نفخ . وقد ذكر صديق له انه كان مخلوقا «بعقل رجل وعواطف امرأة وميول طفل» .

وقد يمترض على قارئ قاذلا ومن هو هذا الذي تريد أن تكتب لنا ترجمة حياته ؟ فهل كان اكثر من قس تنازع الايمان والكفر قلبه ولم تمكن له آراء مسلسلة ، كثير المناقضة لنفسه ، ينفي اليوم ما أثبتته بالامس ويثبت يوما ما ينفيه يوما آخر ؟ ومع اني اوافق على هذا الاعتراض الا اني اجد عبرة في حياة رجل اعدده كامل الايمان بالرغم من اتفاق عامة المؤمنين في عصره على تكفيره . وليس هذا فقط بل وبالرغم ايضا من أنه نفسه كان يشك فيما إذا كان هو مؤمنا أم لا ولم يدع رينان بان له فلسفة بل اعترف بانه ليس أكثر من ذلك . فاذا ما نقض نفسه بنفسه فذلك «لأن الفكرة الواحدة لا تملأ الا حيزاً محدوداً من لفافات الدماغ دون ان تتأثر بقيمة التلايف بذلك» و «ان الواجب على المفكر ان يبحث عن الحقيقة متى وأين وجدها دون ان يخشى الوصول الى ما يخالف اعتقاده» نشأ رينان ليكون قسيساً وكان بالفعل الى آخر ايامه كذلك بالرغم من انه لم ينتم اسلك رهبنة مخصوصه اذ ابى ضميره عليه الا ندماج في سلك الرهبان الكاثوليك

بعد ما حصل على اجازة في اللاهوت . والدافع له على ذلك لم يكن غير شعوره
بانه لم يعد مؤمنا . وقد اكتشف هذه الحقيقة بعد أمد طويل . وكم بكى عندما
صارحه أحد مدرسيه بحقيقة الحال ولم يفده محاولة المدرس تخفيف وقع
المسألة عليه بقوله ان للسن دخل في هذا الجموح وأنه سوف ينظم أفكاره
ويبدأ الى الايمان عند ما يسمح قسا . ولكن لما لم يجد المترجم وسيلة لارجوع
الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية قال « ليس الانسان مخيراً في انتقاء الطريق
الواجب عليه اتباعه فإله ممسك بيدنا يقودنا الى حيث قدر لنا ان نسير »
وكم ود رينان لو ترك الله الانسان يختار ما يظنه لازم الاتباع والا فكان
الاولى به أن يحرمه من الاختيار تماماً فكان يخلقه لا يعقل كالشجرة مثلاً
ليكون عندئذ اقل تعاسة مما هو الآن . واول احتياجا الى شفقة الغير . وينهى
سلسلة أفكاره قائلاً « الهى الهى لماذا عنى تخليت هكذا ؟ » وفي مكان اخر
يقول « لو كان الله يقضى على ما بى من قوة التفكير لكنت أنذر تسمى حياة
بسيطة موحشة . وكم اود لو كنت املك القدرة على ان اعتقد اولا اعتقد
شيئاً مخصوصاً بل كم ارغب في قتل رغبة البحث قصد استجلاء الحقيقة التى
ما كنت كل قلبى . . . آه ما أسعد الاطفال الذين لا يعرفون الا النوم
والاحلام . بل لماذا لا اكون مثل أولئك المؤمنين البسطاء الذين اعيش
بينهم ، أولئك الذين افلحت المسيحية في سكب الطمانينة في قلوبهم »

وكانت أخته من أكبر المؤثرات عليه للابتعاد عن الايمان فهى التى
عقدت صلة التعارف بينه وبين الفلسفة الالمانية . فمارتوى من آراء فلاسفة
الامان ود لو خلق المانيا بروتستانتيا حتى كان يمكنه أن يفكر بحرية دون
أن يلحد فهو كافر نسي كاثوليكي مجبر على أن يسلم تسليماً أعمى بصحة هذيان
لا يمكن أن يقبله العقل . وكانت أخته تده بالكتب الفلسفية الالمانية كلما
سمح لها مرتبها بذلك . في حين كانت أمه بالعكس تتألم جد الألم اذا بدرت
منه أشياء تناقض تعاليم الكنيسة الحققة . فكانت أمه المحبوبة اذن سبباً قوياً
في جريه وراء الايمان لرغبته في رضائها . وكانت أخته المحبوبة أكبر مشجع

له على الخروج من حظيرة الايمان. ولم يكن يري في الفكر الالماني الا « تنمة
للفكرة المسيحية الحرة... إنك لا تجد أثراً للمسيح في فرنسا التي يستمد
أبناءها روح المخاص من فلاسفة الالمان »

والذي اعتقده ان رينان لم يكن ولم يحاول أن يكون ملحداً أو غير
مسيحي بالأقل، وكل ما في الأمر أنه انتقد المسيحية انتقاداً علمياً بدأه عندما
ألم بمبادئ العلوم الطبيعية . فمن الخطأ اذن المقارنة بينه وبين فولتير الذي
كان كثير المطامع مقداما دنيوياً محباً للشهرة ، لان رينان لم يكن غير زاهد
متواضع لا يميل الى الظهور، يبحث رغبة للوصول الى الحقيقة . وقد مات
رينان متأثراً بالتعاليم النصرانية ولم يحاول قط أن يقول بأنها لم تكن ذات
مباديء راقية، وانحصر همه في اصلاح ما ظنه خطأ منها، ذلك بمكس فولتير
الذي أدار للمسيحية ظهره ولم تحرك تعاليمها عواطفه فكرهها واحتقره
وثار ضدها وأوسعها تهكماً مرأ

قال أحد المتدينين المكبرين فولتير ان عدم انتقاده للمسيحية يهدو
نتج عن الاضطهاد الذي واجهه فقد شرد وسجن لانه قال بادية الأمر ما
يعد شيئاً اذا قورن بما قاله رينان فنتج عن ذلك رد فعل أفقده رغبة النق
الصحيح، هذا بعكس رينان الذي لم يواجه الا بعض حملات كتابية تسه
اراءه لا أكثر. ومن الغريب انه ظل صديقاً لرجال الدين الى آخر أيامه

يقول رينان إنه تذوق لذة الايمان الخالص في مستقبل عمره ولكن هذ
اللذة لاتعد شيئاً مذكوراً اذا قورنت باللذة التي تذوقها وهو يبح
وراء الحقيقة

اشتغل رينان لغير الدين أيضاً . وقد كون لنفسه رأياً أراه غريباً ،
« ليست اللغات هبة من الله كما يزعم البعض ولم تتطور عن اشارات وأصوات
كما يزعم البعض الآخر لسكنها وجدت منذ وجد البشر » وليس قصده أ
يقول أن اللغات الحالية لم تتعرض للتطور بل قصده يقول إن البشر كانوا
منذ البداية يتفاهمون بالفاظ وجل . والاغرب من ذلك أنني قرأت لأحد

تقاده ما يأتي « أنا ما دمنا نجهل ما كان عليه الرجل البدائي لا يمكننا نقض
أو تعزيز رأي رينان هذا »

حاز درجة الدكتوراه في الادب بعد ان قدم رسالتين أحدها لاتينية
والأخرى فرنسية . وكان موضوع الثانية « ابن رشد ومدرسته » وابن رشد
في اعتقاده ليس أكثر من قنطرة انتقلت عليها تعاليم أرسطو من عصر الى
عصر . وهو يرمى ابن رشد بتهمة زج آرائه الشخصية ضمن الآراء التي تقلها ،
لكنه يعترف بالاثار المحسوس الذي كان لمدرسته في إنقلاب الفكر الاوربي
وله رأي فذ عن امريكا اذ يقول انها تعيش متطفلة على أوروبا فتأخذ منها
فنونها وعلومها دون أن تنتج بذاتها شيئاً من ذلك

يقرأ في الشاهنامة حنين الفردوسي الى عهد الزرادشتية وأما الف ليلة فهي
فكرة تقرب الى فكرك ما كان عليه عهد الرشيد من الميل الى الخلاعة

أما ابن بطوطة فلم يأت بشيء يستحق الذكر لان رحلته كان من السهل
جداً القيام بها في وقت كان التسول فيه من أسهل السبل ، لتيسر مشقة الانتقال
بين أمم لغتها العربية ودينها لا يفرق بين الاقوام الذين يعتنقونه . ولا أجل
أن تكتب مثل رحلة ابن بطوطة الآن ما عليك الا أن تسير في مجاهل السودان
الاسلامي ثم تقيّد ما تراه

ظهر العنصر الآري قبل ٤٠٠٠ عام في أواسط أفغانستان والعنصر السامي
في أواسط بلاد العرب فكان لكل منهما لغة وعقلية مخصوصة . ومن مميزات
الآريين الاشراك والساميين التوحيد ولم يتوصل الساميون الى التوحيد
عن طريق العقل بل عن طريق الغريزة فقط ، فللآري الاغريق آله للبحر
وآخر للحاصلات وآله للحرب . وأما السامي فجمع الاختصاصات كلها في
شخصية فردة أسماها « ايلوهيم » أو الآلهة ومفردها « ايلوه » الله وبالتدريج
تعود على أن ينطق الاسم المفرد ليدل على الجمع وليس معنى ايلوه غير الرب
والسيد والملك وقالوا عنه أيضاً بعل ومولوخ وكل هذه المترادفات لها معنى
واحد . رأى الآريون الله في الطبيعة . وأما الساميون فقد فصلوه عنها وما

عليك الا قراءة أول سطر في سطر التكوين لتتحقق من ذلك « في البدء خلق الله السموات والارض » والساميون أبعد الناس عن وضع الاساطير. وان من لوازم عقلية الاساطير التفلسف وهذا ما نري له أثراً عند الهنود واليونان ولا ليس عند الساميين. وللحياة البدوية المسيرة بزعامة واحدة ، والغير قادرة على اشادة المعابد العاجزة عن القراءة والكتابة دخل في ذلك. لان الاقتضاب كان لازماً في كل شيء ففكرة الله يجب أن تكون بسيطة والمبادئ الدينية كذلك أيضاً. فمال السامي المحب للبساطة ومال البحث وراء نظريات عويصة بل ماله ومال النقش والتصوير. فذاكرته لا تحمل كل هذا. أليس تراه قد غلبت أساطير بابل ليسهل عليه حفظها في ذاكرته وهو ينتقل من مكان لا آخر ؟



الفلسفة تجبر محبها على التسليم بعدم وجود ما يمكن تأكيده والبحث عما وراء القبر هو بحث عما هو غير موجود (واكن في مكان آخر يقول) يجوز أن يكون وراء القبر جزاء للروح تناله بقدر التضحية التي تقدمها أرواحنا

أما مرمى الطبيعة فكان ظنه عنه أولاً طيباً ولكنه لم يلبث حتى شك فيما إذا كان للطبيعة مرمى لان العالم رواية خص كل منا بدور يتقن تمثيله دون أن يشعر بأنه يفعل ذلك (ثم يعود ويقول) ان هم الطبيعة هو ايجاد التناسق والتوحيد

ان من المستحيل علينا معرفة المسبب الأول ومعرفة نهاية الانسان . ومع ذلك لا نمتأ تكلم عنهما كثيراً بسبب وبغير سبب

الحق والطبيعة والجمال ثالث يستحق العبادة لانه يؤدي الى السعادة يجب ان نعمل الواجب دون ان نتنظر من وراء ذلك أى جزاء عليه يشكر الاب السماوى لانه لم يختار ان يجاوب جواباً شافياً على شكوكه حتى لا يكون الايمان الصحيح بلا جزاء ولا تصبح الفضيلة أمراً تخمينياً ولو كان الأمر الهاماً فقط لأمتلأت القلوب طاهرها ونجسها بالايمان على حد

سواء. ومعنى هذا انعدام حرية انتقاء الخير من الشر. فكيف اذن يبلو الله السرائر و يمنحنا الانفس ؟

كان في شبابه متفائلاً ثم انتاب متشائماً ومع ذلك تجده بحث « الازكياء » على محاولة ان يكونوا متفائلين حتى يشاطروا بقية الناس ما يتعمدون به من السعادة

واليك مثل من تقدمه العالي

انجيل يوحنا يحوي حقائق تاريخية عن حياة المسيح . اما ما يعزى فيه الى المسيح من الفاظ فيظن رينان انها لا تختلف كثيراً عما يعزونه لسقراط وافلاطون ومن رآيه ان يوحنا لم يكتب الانجيل المعزوا اليه . وفي انجيل يوحنا اختلفت وجهة النظر الى المسيح تماماً. فلم يظهره الكاتب بالصورة التي تحاول اظهاره بها الانجيل الاخرى، ففيه لم يصور المسيح بصورة انسان تعرض للتجربة والخطيئة بل كجوهر الهى حل جسم انسان ولم يمل نحو الخطيئة ابداً

كذلك لم يحاول كاتب انجيل يوحنا أن يثبت ان المسيح هو من كان ينتظرة اليهود بل صورته كصاحب شريعة تناقض شريعة « ياهوا » اله اسرائيل . ولم يذكر فيه أيضاً ان المسيح ولد وان له شجرة نسب وأنه تألم . أما الذى كتب سفر ايوب فلم يسلم بنظرية « القضاة » القائلين بان الفلاح الدنيوى يلازم السيرة الحسنة والعكس من ذلك عدم النجاح فى الدنيا فانه يلازم السيرة الفاسدة

يقول ان أسس المسيحية واليهودية وضعها الناس

ان هدم بيت المقدس من أقوى الأسباب التي أظهرت المسيحية كدين مستقل فبعد وقوعه انقطعت الصلة بينهم وبين اليهود فسنحت الفرصة بعدئذ لالتقاء المسيحية بذاتها فى حضن الدولة الرومانية

كان ملوك مصر الرعاة ساميين فاعادوا طردوا وجلس على العرش مصريون استعبدوا بقايا الساميين خصوصاً فى عهد رمسيس الثانى (لويس الرابع عشر

المصري) ولكن لما ضعف خلفاؤه أفاح أولئك العبيد في الخروج من مصر . ومع ان رينان لا يجزم بوجود شخص اسمه موسى الا أنه يفترض وجود من يشبه عبد القادر الجزائري على رأس أوائك القوم . واحتفظ الساميون مدة وجودهم في مصر بسبعة معتقداتهم والصقوها بالعجل الذهبي والحية المقدسة وغيرهما من آلهة المصريين وكان لهم آلهة أسموها « يهوا » وهنالا يتمالك رينان من أظهار امتعاضه للدرك الذي هبط اليه اليهود عند ما فكروا في جعل يهوا آلهة وطنيا لهم دون آلهة المصريين . ذلك لانهم صوروه شريراً وجعلوا تعاليمه تحت على الانانية الغدر والتوحش ثم يقول ولكن من حسن الحظ أنه لما استقر بهم النوي صرعت آلهة فلسطين الاخرى ذلك الآلهة السيء فخل مكانه « ايلوه » الواحد الأحد الذي اكتسب فيما بعد أحسن الصفات

انك تنهم حقيقة الملك سليمان عندما تقرأ أناشيده فملكته نسخة قديمة لملكية لويس الرابع عشر الفرنسي لا أكثر

كان أنبياء بني اسرائيل أول من طالب المستبدين جهاراً بحقوق الناس هذه تتف من آراء المترجم بسطتها وأنا أعتقد بأنني أعطى القارئ فكرة عامة عنه

مات رينان وهو يؤكد لمن حوله بأنه سيموت سعيداً وأن ليس في الموت ما يخافه وودع امرأته قائلاً إنه لا مناص للاستسلام لحكم الطبيعة الذي يسري على كافة المخلوقات